

الفصل السادس عشر

الإسلام

١٧١٥ - ١٧٩٦

١ - الأتراك

حوصرت المسيحية في القرن الثامن عشر بين فولتير ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بين حركة التنوير والإسلام . فمع أن العالم الإسلامي كان قد فقد سطوته الحربية منذ رد سويسكى الترك عن فيينا عام ١٦٨٣ ، إلا أنه ظل مسيطراً على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقرم وجنوبي روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودماشيا واليونان وكريت وجزر الارخبيل وتركيا . وهذه الأقطار كلها - باستثناء فارس - كانت جزءاً من امبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف . فعلى الساحل الدماشى بلغوا الأدریاتيك وواجهوا الولايات البابوية ، وعلى البوسفور تسلطوا على المنفذ البحرى الوحيد من البحر الأسود ، وكان في مقدورهم أن يقفوا سداً منيعاً بين الروس والبحر المتوسط متى شاءوا .

فإذا عبرنا الأقاليم الحجرية إلى بلاد المسلمين لم نلاحظ للوهلة الأولى فرقاً يذكر بين المدينتين المسيحية والإسلامية . فهنا أيضاً كان فقراء المسلمين السذج الأتقياء يفاحون الأرض تحت إمرة ساداتهم الأغنياء الأذكياء المتشككين . ولكن المشهد الاقتصادى يتغير فيما وراء البوسفور : فلايكاد المزروع من الأقاليم يبلغ ١٥٪ ، أما الباقي فصحراء أو جبال لاتتيح غير

التعدين أو الرعي ، هناك كان الإنسان الذي يتميز به الإقليم هو البدوي الذي أسود لونه وتحمص جلده من الشمس ، وتدثر على نحو معقد اتقاء للرمال والقيظ. أما المدن الساحلية أو المتفرقة هنا وهناك كانت حافلة بالتجارة والحرف اليدوية ، ولكن الحياة بدت أكثر دعة واسترخاء مما كانت في المراكز المسيحية ، فالنساء يلزمن بيوتهن أو يسرن في وقار شديد تحت أحمالهن ووراء خمرهن ، والرجال يمشون الهويناء في الشوارع . وكان جل الصناعة يدوياً ، وورشة الصانع ملحقة بتصدير بيته ، وكان يدخن غليونه ويتجاذب الحديث مع غيره أثناء العمل ، وأحياناً يشارك زبوناً قهوته .

ويمكن القول بوجه عام إن التركي العادي كان قانعاً غاية القناعة بمدنيته ، حتى لقد ظل قروناً لا يطيق أى تغيير ذى بال . وكانت التقاليد هنا كما كانت في التعاليم الكاثوليكية مقدسة قداسة التنزيل . أما الدين فكان أعظم قوة وانتشاراً في الأقطار الإسلامية مما كان في العالم المسيحي ، والقرآن هو الشريعة والديانة معاً ، وفقهاء الإسلام شراح الشريعة الرسميون . وكان الحج إلى مكة المكرمة يقود كل عام درامته الميثرة فوق رمال الصحراء وعلى الطرق المتربة . أما في الطبقات العليا فإن البدع العقلانية التي طلع بها معترزة القرن الثامن الميلادي ، والتي واصلها الشعراء والفلاسفة المسلمون طوال عصر الإيمان ، لقيت قبولا واسعاً مستوراً . كتبت الليدى ماري ورتلى مانتاجيو من الاستانة في ١٧١٩ تقول :

« إن الأفندية (أى الطبقة المتعلمة) .. ليسوا أكثر إيماناً بالوحي الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم بعصمة البابا . ويصرحون بالربوبية بينهم وبين من يثقون بهم ولا يتكلمون على شريعتهم (أى ما عليه القرآن الكريم) إلا بوصفها مؤسسة سياسية ، تصالح الآن لأن يتقيد بها العقلاء من الناس وإن كانت أصلاً من عمل رجال السياسة والمتحمسين من رجال الدين » (١) .

وانقسم الإسلام بين مذهبي السنة والشيعة كما انقسمت مسيحية الغرب

بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ثم قام مذهب جديد في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب ، أحد شيوخ نجد - وهو الهضبة الوسطى التي نعرفها اليوم بالعربية السعودية . وكان الوهابيون من الإسلام أشبه بالبيورتان من المسيحية : استنكروا التعبد للأولياء ، وهدموا أضرحة المشايخ والشهداء ، واستهجنوا لبس الحرير والتدخين ، ودافعوا عن حق كل فرد في أن يفسر القرآن لنفسه^(٢) . وقد شاعت الخرافات في جميع المذاهب على السواء ، ولقي دجاجة الدين كما لقيت المعجزات الكاذبة التصديق السريع ، وكان جل المسلمين يعدون مملكة السحر عالما حقيقيا كعالم الرمال والشمس الذي يكتنفهم^(٣) .

أما التعليم فهيمن عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء للقبيلة هي ترويض الخلق لا تحرير الفكر . وكان رجال الدين قد انتصروا في معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط ، فانتكس الفلك إلى التنجيم ، والكيمياء إلى الخيمياء ، والطب إلى السحر ، والتاريخ إلى الأساطير . ولكن في كثير من المسلمين حلت الحكمة الصامتة محل التعليم والتفقه في المعرفة . وكما قال داوتي الحكيم البليغ : « إن العرب والترك ، الذين كتبهم هي وجوه الرجال ... والذين شروحوهم وتفسيرهم هي الأقوال المأثورة السائرة ومثبات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة في عالم الشرق ، هؤلاء قريبون من إدراك الحقائق الإنسانية . إنهم شيوخ راسخون في الحكمة وهم لا يزالون شبابا ، ولا ينسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا^(٤) » . وقد أكد ورتلي مونتجيو في خطاب كتبه عام ١٧١٧ لأديسون أن « الرجال ذوى الشأن من الأتراك يبدون في أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضرا عن أى رجال التقيت بهم في إيطاليا »^(٥) ، أجل فالحكمة ليس لها وطن .

ولقد كان عالم الإسلام على الدوام غنيا بالشعراء . ذلك أن الصحارى الرهيبة ، والسماء المحيطة ، والنجوم المنتشرة إلى ما لا نهاية في الليالي الصافية ، كل أولئك حرك الخيال كما حرك الإيمان الديني بالإحساس بما في الكون من

أسرار ملغزة ، وأضفى دم الشباب المضطرم بالرغبة المكبوتة على مفاتن النساء تصورا مثاليا ، تلك المفاتن التي زدها إغراء في ذكاء وحكمة باحتجابهن وحياتهن . وفي عام ١٧٧٤ نشر السير وليم جونسن كتابه « شروح على الشعر العربي » الذي كشف للعقول اليقظة في غربي أوروبا عن حب المسلمين للشعر وما ينطوى عليه من رقة وعاطفة مشبوبة . أما أعظم فحول الشعراء العثمانيين في القرن الثامن عشر فهو نديم ، الذي تغنى بشعره أيام السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ٣٠) :

ليه أيها الحب الحائر ، إن قلبي وروحي ضاعا هباء
وفرغ مني الصبر وذهب الجلد
ذات مرة كشفت عن صدرها البديع ،
فإذا الراحة والسلام يهربان من صدرى ...
لها نخال في خدها وثنى ، وضفائر وثنية ، وعيون وثنية ...
أقسم أن دنيا جمالها القاسى بأسرها وثنية خالصة .
ولقد وعدتني بقبلات على نحرها ، وبقبلات على صدرها ،
ولكن ويلي فقد حنشت الوثنية بوعددها السابق .
يا للرشاقة المحببة التي أبرزت بها غداثرها من تحت طربوشها ،
كل مخلوق أبصرها تأمل حسنها مشادوها لتوه .
يا قاسية القلب ، لأجلك يبكى الرجال وينوحون يأسا ،
إن قدك الرقيق لزكى من كل شدى وأهيج من كل لون ،
فليت شعري هل أرضعتك وردة عطرة من ثديها .
وأنتك لتقبلين أيتها الحلوة وفي إحدى يديك وردة وفي الأخرى كأس .
فلا أدري أى الثلاثة آخذ . - الوردة أم الكأس أم أنت .

لكأن نبغاً متدفقاً تفجر من نهر الحياة :

حين طلعت على بذلك القمد اللدن البديع^(٦) .

وكان على النساء الإفادة ما استطعن من قدودهن اللدنة الرشيقية ، فتمى ذبلت محسانهن جر عليهن الزمن ذيول النسيان في زوايا الحريم . وكان لفظ « الحريم » هذا لا يقصر على أزواج الرجل وسراريه ، بل ينسحب على كل إناث بيته . وقد ظل الحجاب مضروباً عليهن في القرن الثامن عشر ، وكان يسمح لهن بالخروج من الدار ، ولكن (بعد ١٧٥٤) كان عليهن إذا خرجن أن يخفين كل عضو فيهن إلا عيونهن الساحرة ، ولا يدخل جناحهن غير الأب ، أو الأخ ، أو الزوج ، أو الإبن . وحتى بعد الموت كان المفروض أن يتصل هذا الفصل بين الجنسين في الدار الآخرة . فالمؤمنات لهن جنتهن غير جنة الرجال ، والمؤمنون يمضون إلى فردوس آخر ترفه فيه عنهم حور من الجنة أبكار متجددات الشباب . وكانت خيانة المرأة أزواجها تعاقب عقاباً صارماً ويندر حدوثها ، وكان العربي يحلف بـ « شرف حريمه » كأغلظ الأيمان^(٧) . وروت الليدي ماري أن النساء التركيات اللاتي سمح لها بلقائهن لم تضيقن بالحجاب الذي عزلهن عن الرجال . وقد رأت بعضهن يعدلن في جمال الوجه وحسن القصد ورفاهة الطبع « أشهر حساننا الإنجليزيات^(٨) . فلما أذن لها بدخول أحد الحمامات العامة الكثيرة ، تبين لها أن النساء يمكن أن يكن جميلات حتى لو تجردن من الثياب . وقد أفتنت على الأخص بنساء الطبقة الراقية في حمام بأدرنة . دعوتها نلح ملابسه والاستحمام معهن ، فاعتذرت . » ولما اشتد إلحاحهن على اضطرت في النهاية إلى أن أفتح قيصي وأرهن مشدي (الكورسيه) ، فأقنعهن هذا تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنني حبيسة بقيود تلك الآلة بحيث لا أقوى على فتحها ، وقد عزون هذه الحيلة لتدبير زوجي . وعلقت إحداهن قائلة « أنظرن كم يقسو الأزواج الإنجليز على نساكن المساكين^(٩) » .

وكان الأتراك فخورين بحماماتهم العامة ، يرون أنفسهم على العموم شعباً

أنظف من النصارى الكفار . وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يمتثلون إلى الحمام التركي مرتين في الأسبوع ، وأكثر منهم يمتثلون مرة في الأسبوع . هناك يجلسون في غرفة ملئت بخارا حتى يتصببوا عرقا ، ثم يأتي عامل فيدعك كل مفصل في أجسامهم ويدلك لحمهم ويكيسه بقطعة من القماش الخشن ثم يغسأه . لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل في تركيا . على أن أمراضا أخرى تفشت بينهم لاسيما الرمد ، فالرمال والذباب كانت تنقل العدوى إلى العيون . ولكن الأتراك كما أسلفنا علموا أوروبا التطعيم ضد الجدري .

ولم يخامرهم شك في أن مدنياتهم تفوق مدينة الاقطار المسيحية . صحيح أنهم سلموا بأن الرق كان أوسع انتشارا في بلاد المسلمين ، ولكنهم لم يروا فرقا حقيقيا بين الارقاء في تركيا والاقنان (Serfs) أو الخدم (Servants) في العالم المسيحي ، وقد اتفقت معهم في الرأي الليدى مارى واصل اللفظ . وكانوا لا يقلون عنا غلوا في حب الأزهار والعناية بها ، فكانت لهم مثلنا مباريات مجموعة في تربية زهرة الطوليب ؛ كما شهدت الأستانة في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ٣٠) ؛ ويبدو أن الأتراك هم الذين أدخلوا إلى أوروبا المسيحية بطريق البندقية وفيينا والأراضي الواطئة أزهار الطوليب والياقوتية (Hyacinth) الشرقية وحوزان الحدائق (ranunculus) كما أدخلوا أشجار القسطل (أبو فروة) - والميموزا (١٠) .

أما الفن في تركيا فكان الآن في اضمحلال شأنه في معظم الأقطار المسيحية . واعتبر الأتراك أنفسهم أرقى في صناعات الفخار والنسيج والأبسطة والزخرفة وحتى في المعمار . فقد ورثوا عن آباؤهم كيف يضمنون على التصوير التجريدى منطقاً وتواصلا ودلالة . وفاخروا بهاء القاشانى الذى صنعوه (كما يرى على نافورة أحمد الثالث في الأستانة) ، وبيريق قرميدهم الذى لا ينطفئ ، وبصلاية منسوجاتهم ورقها « وبنالق أبسطهم ومثانتها . واشتهرت الأناضول والقوقاز في هذه الحقبة بوبرهما اللامع وتصميم السجاد الهندسى الدقيق ، لاسيما بجاجيد الصلاة التى توجه أعمدتها وأقواسها المدببة

المصلى الراكع صوب المحراب الذى يشير فى كل مسجد إلى قبلة مكة المكرمة . كذلك فضل الأتراك جوامعهم ذات القباب والقرميد والمآذن على أبراج الكتدرائيات القوطية وعقودها وفخامتها الكابية . وشيدوا حتى فى هذه الحقبة المضمحلة المساجد العظيمة فى نوري - عثمانية (١٧٤٨) ولإيلي - يامسى (١٧٦٥) ، وحاكى أحمد الثالث طراز الحمراء فى القصر الذى شيده فى عام ١٧٢٩ . أما الآستانة فلعلها كانت أروع العواصم الأوروبية ، كما كانت أوسعها رقعة برغم شوارعها المتشابكة وأحيائها الفقيرة الكثيرة الضميج ، وكان سكانها البالغون مايونين من الأنفس (١١) مثلى سكان لندن ، وثلاثة أمثال سكان باريس ، وثمانية أمثال سكان روما (١٢) .
و حين أطلت الليدى ماري على المدينة والميناء من قصر السفير البريطانى ،
نخيل إليها أنهما « ربما يؤلفان معاً أبهى مشهد فى العالم » (١٣) .

على عرش هذه الإمبراطورية العثمانية ، من الفرات إلى الأطلنطى ،
ترجع سلاطين عصر الاضمحلال . ولقد نظرنا فى موضع آخر من هذا
الكتاب (١٤) فى أسباب ذلك الاضمحلال : وهى انتقال تجارة غربى أوربا
التي تقصد آسيا ، إذ أصبحت تدور حول أفريقيا بجزء بدلاً من طريقها البرى
الذى كان يخرق مصر أو غربى آسيا ؛ وتخریب قنوات الرى أو إهمالها ؛
وتوسع الإمبراطورية وامتدادها إلى مسافات مترامية لاتتيح لها الحكم
المركزى الفعال وما ترتب على ذلك من استقلال الباشوات ونزوع الولايات
إلى الانفصال ؛ وتدهورت الحكومة المركزية لتفشى الرشوة والعجز والكسل ،
وتمرد الانكشارية المرة تلو المرة على النظام الصارم الذى كان له الفضل
فما بلغوا من قسوة وتساط القدرية والجمود على الحياة والفكر ، وتراخى
السلاطين الذين استنابوا بخدور النساء وآثروها على ساحات الوغى .

وقد استهل أحمد الثالث حكمه بسماحة للإنكشارية بأن يملوا عليه .
اختياره لكبير وزرائه (الصدر الأعظم) . وهذا الوزير هو الذى قبل
رشوة بلغت ٢٣٠٠٠٠ روبل بعد أن قاد ٢٠٠٠٠٠ تركى ضد ٣٨٠٠٠٠
جندى من جيش بطرس الأكبر عند نهر بروت ، لقاء سماحه للقيصر المحاصر

بالفرار (٢١ يوليو ١٧١١) . وحدث أن حرّضت البندقية أهل الجبل الأسود على الثورة على تركيا ، فأعلنت هذه الحرب عليها (١٧١٥) وأتمت فتح كريت واليونان . . فلما أن تدخلت النمسا ، أعلنت تركيا الحرب عليها (١٧١٦) ، ولكن أوجين أمير سافوا هزم الترك في بترفاردلين وأكره الساطان بمقتضى معاهدة ساروفنز (١٧١٨) على الجلاء عن المجر ، والنزول عن بلغراد وأجزاء من ولاشيا للنمسا ، وتسليم البندقية حصونا في ألمانيا ودلماشيا . ولم تسفر المحاولات التي بذلتها تركيا لتعويض هذه الخسائر بالغارات تشنها على فارس إلا عن المزيد من النكسات والهزائم ، وقد قتل الغوغاء- بقيادة عامل حمام--الوزير إبراهيم باشا وأكره هو أحمد على التنازل عن العرش (١٧٣٠) .

وجدد ابن أخيه محمود الأول (١٧٣٠ - ٥٤) الصراع مع الغرب ليفرض بالحرب تدفق الضرائب وتعاليم الدين ، وأنزع جيش تركي أونخاكوف وكلبورون من روسيا ، وأسترد جيش آخر بلغراد من النمسا . غير أن أضمه حلال تركيا عاود سيرته الأولى في عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ٧٤) . ففي ١٧٦٢ أعلنت بلغاريا استقلالها . وفي ١٧٦٩ خاضت تركيا الحرب مع روسيا منعاً لانتشار سلطان روسيا في بولندا . وهكذا بدأ ذلك الصراع الطويل الذي أنزلت فيه جيوش كاترين الكبرى هزائم ساحقة بالأتراك . فلما مات مصطفى أبرم أخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ٨٩) معاهدة مدلة تسمى قجوق قينارجي (١٧٧٤) ، قضت على النفوذ التركي في بولندا وجنوبي روسيا ومالداfia وولاشيا ، وعلى هيمنة الأتراك على البحر الأسود . وجدد عبد الحميد الحرب في ١٧٨٧ ، فهزم هزائم منكرة ، ومات كمدا . وكان على تركيا أن تنتظر حتى يجيء كمال باشا (أتاتورك) لينهى قرنين من الفوضى ويجعل منها دولة حديثة .

٢ - الإسلام في أفريقيا

بعد أن فتح العثمانيون مصر (١٥١٧) أنابوا عنهم في حكمها الباشوات والولاة . وسمحوا للمهاليك الذين كانوا يحكمون مصر منذ ١٢٥٠ بالاحتفاظ

بسلطتهم المحلية بكوات على السنجقيات الاثنتي عشرة التي قسمت إليها البلاد .
وبينما كان الباشوات يبددون عافيتهم في البليخ والترف ، درب البكوات
جنودهم على الولاء لأشخاصهم ، وسرعان ما اتخذوا سلطة الولاة المكروهين .
وكان أكثر هؤلاء الحكام الخائين إقداما هو علي بك [الكبير] ، الذي
كان في طفولته قد بيع عبدا . ففي ١٧٦٦ خلع الباشا وفي ١٧٦٩ أعلن استقلال
مصر . وانتشى نخمرة النصر فقاد جنده المماليك ليفتح جزيرة العرب ،
واستولى على مكة ، واتخذ لقب سلطان مصر وخواقان البحرين (الأحمر
والمتوسط) . وفي ١٧٧١ أوفد « أبنا الذهب » على رأس ثلاثين ألف مقاتل
لفتح الشام ، ففتحها ، وامكنه تحالف مع الباب العالي ، وقاد جيشه عائدا
إلى مصر . وفر على بك إلى عكا ، وجند جيشا آخر ، والتقى بقوات أبي
الذهب والأتراك ، وقاتل حتى أثنى بالجراح فمجز عن الماضي في القتال ،
ووقع في الأسر . ثم قضى نحبه بعد أسبوع (١٧٧٣) . وعادت مصر
ولاية عثمانية من جديد .

ودون ذبذبات السلطة ونشوات القتل هذه استطاعت مراكب التجارة
وقوافلها ، واجتهاد الحرفيين ، وفيضان النيل السنوي ، وعرق الفلاحين
في التربة الطميية الخصبة ... استطاعت كلها أن تبقى في مصر على اقتصاد لم
يجن ثماره غير قلة حبتها الطبيعة أو الظروف بالكفاية أو المنصب . وأنتج
جهد الحقول والبحار ومحصولها طعاما للمدن وخصوصا الإسكندرية التي
كانت من أعظم الثغور ، والقاهرة التي كانت من أكثر العواصم سكانا في
عالم القرن الثامن عشر . وكانت الشوارع ضيقة لتحجب الشمس . وقد
زينت بالمشربيات والشرفات التي يستطيع الحريم اختلاس النظر منها إلى
الحياة من تحتها . وكانت الشوارع الكبيرة تعج بالحرف التي تعدت تطفل
رأس المال أو إنتاج الآلات . وكانت كل صناعة في أقطار الإسلام فنا ،
وحلت الجودة محل الكم . فصنع الفقراء التحف والطرف الأثنياء والكنهم
لم يبيعوهم قط أباءهم وعزة نفوسهم .

وقام في القاهرة ثلاثمائة مسجد تدعم فقراءها بالرجاء ، وتزين

المدينة بالقباب الضخمة والأروقة المعمدة الظليلة والمآذن الشاهقة . وكان أحدها وهو الجامع الأزهر جامعة الإسلام الأولى ، يؤمه من الطلاب ألفان أو ثلاثة من أقصى بقاع الأرض ، من ماليزيا شرقاً إلى المغرب غرباً ، ليتعلموا لغة القرآن وعلوم البلاغة والتوحيد والأخلاق والشريعة ، وكان يخرجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء ، ومنهم يختار المعلمون والقضاة . لقد كان نظاماً وضع لسنية صارمة في الدين والأخلاق والسياسة .

وهكذا لم يكد يطرأ على الأخلاق أى تغيير من قرن إلى قرن . وكانت سن بلوغ الأحداث متقدمة عنها في الأقطار الشمالية ، فتزوج كثير من البنات في الثانية أو الثالثة عشرة ، وبعضهن في العاشرة ، وبقاء الفتاة بغير زواج إلى السادسة عشرة كان عاراً . ولم يقدر على تعدد الزوجات الذى أباحته الشريعة الإسلامية إلا أغنياء القوم . أما الزوج الذى تخونه زوجته فلم يكن من حقه الشرعى أن يقتل هذه الزوجة المحرمة فحسب ، بل كان يلقي التشجيع من رأى العام^(١٥) . وكان الفكر الإسلامى ، كالمسيحى ، يعتبر المرأة مصدراً رئيسياً للشر ، لا يمكن السيطرة عليه إلا بإخضاعها إخضاعاً صارماً . وكان الأطفال ينشأون على نظام الحریم ، فيتعلمون أن يحبوا أمهم وأن يخشوا أباهم ويجلوه ، وكانوا كلهم تقريباً يتعلمون ضبط النفس وحسن الأدب^(١٦) . وساد حسن السلوك جميع الطبقات ، مع شىء من يسر الحركة ورشاقتها ، لعله أخذ عن النساء اللاتى ربما أكتسبته من حمل الأثقال على رعوسهن . وكان المناخ مانعاً من العجالة مشجعاً على الكسل .

ولم يمنع تعدد الزوجات البغاء ، ففي استطاعة البغايا توفير الاثارة التى أحمدها طول الألفة . وتخصصت غوانى مصر فى الرقصات الفاجرة ، وبعض الآثار القديمة تكشف عن قدم هذا الاغراء . وكانت كل مدينة كبرى تخصص للبغايا حياً يمارسن فيه حرفتهن دون خوف من عقاب القانون . وكانت النساء اللاتى يحدقن الرقصات الفاجرة ، شأنهن فى جميع الحضارات ،

يستأجرون لهن أجسادهن أمام محافل الذكور ، وفي بعض الحالات كانت النسوة أيضاً يستمتعن بمشاهدة هذا الرقص (١٧) .

أما الموسيقى فكانت تستخدم الحب والحرب ، فهي تستفر المهاجمين وتهديء المهزومين . وكان الموسيقيون المحترفون من الجنسين يؤتى بهم للترفيه . كتب إدوارد لين في ١٨٣٣ يقول « سمعت في القاهرة أعظم الموسيقيين شهرة وأطربتي أغانيهم أكثر من أى موسيقى أخرى أستمتعت بها في حياتي (١٨) . وكانت الآلة المفضلة هي « الكمنجة » ، وهي ضرب من الفيولا النحيلة ، ولها وتران من شعر الخيل على صندوق مصمت مصنوع من جوزة هند شقت بين وسطها ورأسها وغطيت بقشر سمك مشدود^(١٥) . وكان العازف يربع ويسند طرف الآلة المدبب على الأرض ، ويضرب أوتارها بقوس من شعر الحصان ونخشب الدر دار . أو قد يقعد العازف وفي حجره قانون كبير وينقر الأوتار بريشة من القرن ملصقة بسبائتيه . وتحول العود القديم الآن إلى شكل الجيتار . فإذا أضفت نايا ، وماندولين ، وطمبورينا ، أكتمل لك أوركسترا يروق الذوق المتحضر ، خيراً من تلك الموسيقى البدائية التي تهيج اليوم المحافل الغربية .

أما « دول البربر » أى البلاد التي زعموا أنها « بربرية » أو همجية - وهي طرابلس وتونس والجزائر ومراكش - فقد دخلت التاريخ في القرن الثامن عشر أولاً بفضل بطولات قراصنها أو اغتيال « باياتها » أو « داياتها » وقد احتفظت هذه الحكومات باستقلالها الفعلي بإرسالها « الهدايا » بين الحين والحين إلى السلاطين بالآستانة . وكان قوت الشعب يأتي أكثره من الزراعة أو القرصنة ، وكانت الفدية التي تؤدي عن الأسرى النصارى جزءاً هاماً من الدخل القومي : غير أن قباطنة القراصنة كان أكثرهم نصارى^(١٩) . أما القنون فظلت محتفظة بوجود قلتى ، ولكن البنائين المغاربة احتفظوا بقدر من المهارة أتاح لهم أن يزرکشوا بالقرميد الأزرق والأخضر المتألق « باب منصور » الفخم الذي أضيف في ١٧٣٢ بوابة بقصر مولاي إسماعيل وجامعه الضخم

(٥) الرصف ينطبق على الرباية لا على الكمنجة (المترجم) .

الذي ابتناه في القرن السابع عشر في مكناس ، وكانت آنثد مقر سلاطين
مراكش . أما مولاي اسماعيل هذا فقد أقر النظام في حكمه الذي امتد خمسة
وخمسين عاماً (١٦٧٢ - ١٧٢٧) وأنجب مئات الأبناء ، ورأى في منجزاته
ما يبرر طلب يد ابنة اللويس الرابع عشر يضمها إلى حريمه (٢١) . ويصعب
علينا أن نسيغ أساليب حياة شديدة التبائن عن أساليب حياتنا ، ولكن قد
يعيننا على ذلك أن نتذكر ملاحظة قالها رحالة مغربي عند عودته من زيارة
إلى أوربا « يالها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة » (٢١) .

٣ - الإسلام في فارس (١٧٢٢ - ١٨٩)

ولو سئل رجل فارسي في هذه الحقبة لأعرب عن شعور بالراحة شبيه
بهذا عند عودته إلى وطنه بعد مقامه حقبة في الأقطار المسيحية أو حتى
في أقطار العثمانيين المسلمين . فالفارسي المتعلم حتى سقوط الدولة الصفوية
(١٧٣٦) في أغلب الظن كان يضع المدنية الإيرانية في مرتبة أعلى من أي
حضارة معاصرة ، ربما باستثناء الصينية . وكان يستنكر النصرانية باعتبارها
انتكاساً إلى الشرك الشائع بين العوام . ولعله كان يسلم بتفوق بلاد النصارى
في العلوم والتجارة والحرب ، ولكنه كان يؤثر الفنون على العلوم ،
والحرف اليدوية على الصناعة المميكنة .

كان القرن الثامن عشر قرناً ألماً على فارس . فأنى لإيران وقد غزاها
الأفغانيون من الجنوب الشرقي ، ولاحقها غارات قناصة العبيد من الأzbek
في الشمال الشرقي ، وهاجمتها غارات السلب والنهب الروسية في الشمال ،
واجتاحها المرة بعد المرة الجيوش التركية في الغرب ، وأفقرها طغيان نادر
شاه ملكها المحب الأبهة وتعسفه في جمع الضرائب ، ومزق أوصالها الصراع
الوحشي بين الأسر المتناحرة طمعاً في العرش الفارسي - نقول أنى وكيف
تستطيع إيران وقد ابتليت بهذا الاضطراب كله أن تواصل التقاليد العظمى
للأدب والفن الفارسيين .

وكان البلد الذي نسميه الآن أفغانستان في القرن السادس عشر تتقاسمه

ثلاث حكومات : كابول الخاضعة للحكم الهندي ، وبلخ الخاضعة للأزبك ، وهرارة وقندهار الخاضعتان للفرس . وفي ١٧٠٦ - ٨ ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطرردوا الفرس . وغزا ابنه مير محمود فارس ، ونخاع الحاكم الصفوي حسينا ، ونصب نفسه شاهاً . وقد دعم الدين سلاحه ، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السني ، ويكفرون الفرس المتشيعين . وقتل محمود في سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشرف الفرس ، ونحو مائتي طفل أشتبه في أنهم استنكروا قتل آبائهم . وبعد راحة طويلة قتل محمود في يوم واحد (٧ فبراير ١٧٢٥) جميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلا حسينا وإثنين من أبنائه الصغار . ثم التاث عقل محمود ، فقتله وهو لا يزال في السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (٢٢ أبريل ١٧٢٥) الذي نادى بنفسه شاهاً . وهكذا بدأ سفك الدماء الذي هد كيان فارس في ذلك القرن . واستنجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا ، فاستجابت بالاتفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (١٧٢٥) . ودخل جيش تركي فارس واستولى على همدان وقزوین والمرآغة ، ولكن هزمه أشرف قرب كرمانشاه . وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة ، فقد تساءلوا أي سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين ، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم ، ليردوا الصفويين الشيعة الزنادقة إلى الحكم . وتصالح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التي فتحوها (١٧٢٧) .

وبدا أن أشرف قد غدا الآن في أمان ، ولكن ما مضى عليه عام حتى تحدى سلطانه المغضوب الدخيل ظهور رجل فارسي مغمور أنقض على العدو في بضع سنين ، فحقق انتصارات من أروع وأفطع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة . وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قبلي (أي عبد الله) في خيمة بشمال شرقي إيران (١٦٨٦) وكان يعين أباه على رعي ما يملكان من قطعان الغنم والماعز ، ولم يتح له من التعليم غير ما لقمته الحياة الشاقة المحفوفة

بالمخاطر . فلما بلغ الثامنة عشرة وخاف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هو وأمه المغيرون الأذرباك وحملوهما إلى نخيوة حيث باعوهما عبيداً . وماتت الأم في ذل الأسر ، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيماً لعصابة لصوص ، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد ، وأعان ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب ، وتعهد بطرد الأفغانين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب . وقد أنجز هذا كله في حملات متلاحقة (١٧٢٩ - ٣٠) ورد طهماسب إلى عرشه ، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران .

وما لبث القائد المظفر أن شرع في استرداد الأقاليم التي استولت عليها تركيا . فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصلة في همدان (١٧٣١) أن يخضع العراق وأذربيجان لحكم الفرس . ثم نمت إليه نبتاً تمرد في خراسان ، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هراة ، وهو زحف يتضاءل بالقياس إليه الزحف الشهير الذي عبر فيه فردريك الأكبر ألمانيا مراراً في حرب السنين السبع . ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك إلى ساحة القتال ضد الترك فمخسر كل ما كسبه نادر ، ونزل عن جورجيا وأرمينيا لتركيا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (١٧٣٢) . فأسرع نادر قافلاً من الشرق وأنهى المعاهدة ، وخلع طهماسب وسجنه ، وأجلس على العرش غلاماً لطهماسب لم يجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث ، ونادى بنفسه وصياً على الصبي ، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب :

ثم زحف على الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب . وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عزم - رم من الترك يتوهم توبال عثمان من محفته لبت ساقيه . وأطاعت النار مرتين على جوادى نادر أسفله ، وفر حائل عامه ظناً منه أنه قتل ، وأنقابت عليه فرقة عربية كان يعتمد على معونتها ، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ما حقة (١٨ يوليو ١٧٣٣) . ولكنه لم فلول جيشه في همدان ، وجند ألفاً

جددا ، وسلحهم وأطعمهم ، ثم كر على الترك وبطش بهم في ليلان في منبجة رهيبة لقي فيها توبال عثمان حتفه . ثم أندلعت ثورة أخرى في جنوب غربى فارس ، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق ، وهزم الزعيم المتمرد فانتحر . وفي عودته عبر فارس والعراق ، ألتقى بثمانين ألف تركى في بغاوند (١٧٣٥) ، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تفليس وجونده وأروان .

لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس في ١٧٢٢ - ٢٣ ، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين ، وعلى مدينتى دربند وباكو . وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (١٧٣٢) لأنشغالها في جهات أخرى . فهدد نادر الآن (١٧٣٥) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا أن لم تنسحب من دربند وباكو . وعليه سلمت إليه المدينتان ، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذى أعاد بناء قوة فارس . فلما مات الصبى عباس الثالث (١٧٣٦) فختما بموته ملك الصفويين ، جمع نادر بين الواقع والمظهر ، وارتقى العرش باسم نادر شاه .

وكان يؤمن بأن الخلافات الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة ، لذلك أعلن أن فارس ستتخلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترتضى السنية مذهبها . فلما أدان زعيم الشيعة هذه الخطوة شنقه نادر بكل هدوء مستطاع . ثم صادر أوقاف قزوين الدينية ليفى بنفقات جيشه لأن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هى مدينة لدينها (٢٢) . ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب ، فأشرك معه فى الملك ابنه رضا قلى ، ثم قاد جيشا من ١٠٠٠٠ مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند .

و ضرب الحصار عاما كاملا حول قندهار . فلما استسلمت له (١٧٣٨) كان كريما رحيا مع المدافعين عنها ، حتى أن جيشا من الأفغانيين أنضوى تحت لوائه وظل وفيا له إلى يوم مماته . ثم زحف على كابول مفتاح ممر

نخبر ، وهناك أعانته الغنائم التي ظفر بها على رفع الروح المعنوية في جيشه .
وكان محمد شاه ، إمبراطور الهند المغولي ، يأبى أن يصدق إمكان غزو
الفرس للهند ، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه ، فعبّر نادر
جبال الهملايا ، وأستولى على بشاور ، وعبر السند ، وزحف على دلهي
حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلا قبل أن يهب جيش محمد لمقاومته
والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (١٧٣٩) ، وأعتمد الهنود على
فيلتهم ، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار ،
فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى في جيش الهنود ، وقتل منهم
عشرة آلاف ، وأسر عدد زاد على القتلى ، ويروى نادر أن محمد شاه
جاءه يلتمس الرأفة « أمام حضرتنا السماوية » . (٢٣) وفرض عليه القائد
المنتصر تسليم دلهي وكل ثروتها القابلة للنقل تقريبا ، والتي تقدر بـ
٨٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، بما فيها عرش الطاووس الأشهر ، الذي كان قد صنع
(١٦٢٨ - ٣٥) لشاه جيهان في أوج سطوة المغول . وقتل بعض جنود
نادر في شغب أحدثه الأهالي ، فانتقم بالساح لجيشه بذبح ١٠٠,٠٠٠ من
الوطنيين في سبع ساعات . واعتذر عن هذه الفعلة بتزويج إبنته نصرالله من
إبنة محمد . ثم زحف قافلا إلى فارس لايعوقه عائق بعد أن أثبت أنه
أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك .

وكان قدره المقدر أنه او سرح جيشه فرما يعيث فسادا في الأرض
ويشق عليه عصا الطاعة ، ولو أبقى عليه جيشا عاملا فلزام عليه أن يكسوه
ويطعمه ، وكانت النتيجة التي خلص إليها أن الحرب أرخص له من السلم
إذا استطاع خوضها على ساحة غريبة . فمن ترى يكون هدفه الآن ؟ وتذكر
غارات الأزباك على شمال شرقي فارس ، وكيف باعوه عبدا ، وكيف
ماتت أمه في رقها . وإذن ففي ١٧٤٠ قاد جيشه زاحفا على أذربكستان ، ولم
يكن لأمر بخارى لا القوة ولا الميل للوقوف في وجه نادر ، ومن ثم فقد
أذعن ، وأدى تعويضا ضخما ، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان في
القدم الحد بين أذربكستان وفارس . وكان خان نخبوه قد أعدم مبعوث نادر ،

فقتل نادر هذا الخان ، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (١٧٤٠) .

كان نادر بكل شخصيته مقاتلاً استغرقت الحرب عقله كله ، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة في الحكم والإدارة . وبات السلام عنده عبثاً ثقيلاً لا يطيقه . وجعلته الغنائم والأسلاب إنساناً جشعاً بخيلاً بدلاً من أن يكون جواداً كريماً . فحين ملأت خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب في فارس ثلاث سنين ، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل ، وأفقر جيّاته فارس كما لو كانت بلداً مغلوباً . ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتآمر على نخله ، فأمر بأن تفتقأ عيناه . وقال له ابنه رضا قلى « إنك لم تفتقأ عيني بل عيني فارس » (٢٤) . وبدأ الفرس يمقتون منقادهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمقتوا بطرس الأكبر . وأثار الزعماء الدينيين عليه بغض أمة طعنّت في إيمانها الديني . فحاول أن يخمد التمرد المتعظم بإعدام المتمردين بالجملة ، حتى لقد بنى أهراماً من جماجم ضحاياها . وفي ٢ يونيو ١٧٤٧ اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهجموا عليه ، فقتل اثنين منهم ، ولكن الآخرين صرعاة . وتنفست فارس كلها الصعداء ،

وهوت من بعده البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما تردت فيه أيام سيطرة الأفغانيين . فطالب نفر من نخانات الاقاليم بالعرش ، وتلا ذلك مباراة في التقتيل والاغتيال . وقنع أحمد خان بتأسيس مملكة أفغانستان الحديثة . أما شاه رخ - الرجل الوسيم اللطيف الرحيم - فتقد سمت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل ، فتهتقر ليحكم خراسان حتى ١٧٩٦ . وخرج كريم خان منتصراً من الصراع ، وأسس الاسرة الزندية (١٧٥٠) التي احتفظت بساططانها حتى ١٧٩٤ . واختار كريم شيراز عاصمة للملكة ، وزينها بالمباني الجميلة ، وساد جنوبي فارس تسعة وعشرين عاماً من نظام وسلام لا بأس بهما . فلما مات جعل التطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الاهلية ، وعادت الفوضى تضرب أطنانها من جديد .

انختتمت فارس آخر مراحلها الفنية العظمى بسقوط الدولة الصفوية على

يد الافغانيين ، فلم تجملها بعد ذلك غير بعض الآثار الفنية الصغيرة . وقد وصف اللورد كرزون مدرسة الشاه حسين (١٧١٤) بأصفهان - وكانت كلية لتدريب الدارسين والمحامين - بأنها « من أفخم الاطلال في فارس » (٢٥) . وتعجب السير برسي سايكس من « قرميدها البديع ... ورسومها المخرقة الجميلة » (٢٦) . وكان صناع القرמיד لا يزالون أمهر صناعه في العالم بأسره ، بيد أن افتقار الطبقات العليا نتيجة للحروب الطويلة قضى على سوق المهارة والتفوق وأكره الخزافين على الهبوط بفنهم إلى مستوى الصناعة . وصنعت أغلفة الكتب الفاخرة من الورق المعجن المصقول . وأنتج النساجون أقمشة مقصبة ومطرزة غاية في الرهافة . وظلت السجاجيد الفارسية تنسج للمحوظين من شعوب كثيرة رغم أنها شهدت آخر أمجادها في عهد الشاه عباس الاول . وفي يوشاجان ، وهرارة ، وكرمان ، وشيراز على الاخص ، كان النساجون ينتجون سجاجيد « لا يقلل من روعتها في عين الناظر إلا مقارنتها بأسلافها الكلاسيكية » (٢٧) .

أما الشعر الفارسي فقد حطم الفتح الافغاني قلبه ، وتركه أخرس أو كالأخرس طوال حقبة العبودية التالية لهذا الفتح . وحوالي ١٧٥٠ صنف لطف علي بك أدار - قاموسا بسير الشعراء الفرس ، اختتم بستين من معاصريه . ومع هذه الوفرة الظاهرة فإنه أسف على ما رآه مجاعة في الكتاب المجيدين في عصره ، وعزا ذلك إلى الفوضى والفقر السائدين ، « واللذين استشرىا بحيث لم يعد لإنسان رغبة في قراءة الشعر فضلا عن قرضه » (٢٨) . ونسوق هنا تجربة نموذجية للشيخ علي خازن ، الذي نظم أربعة دواوين من الشعر ، ولكنه أمسك في حصار الأفغانيين لأصفهان ، ومات كل أهل بيته في الحصار ، وظل هو على قيد الحياة ، ثم أفاق من محنته ، وهرب من أنقاض المدينة التي كانت رائعة الجمال يوما ما ، وأنفق الأعوام الثلاثة والثلاثين الباقية من أجله في الهند . وقد خلد في « مذاكراته » (١٧٤٢) ذكرى مائة شاعر فارسي في جيله ، وأعظمهم في رأيه سيد أحمد هاتف الأصفهاني ، ولعل أكثر قصائده ظفرا بالثناء تلك التي أكد فيها بوجود المتصوفة إيمانه بالله رغم الشك والدمار :

« في الكنيسة قلت لفاتنة نصرانية ،
يا من يقع القلب في فخك أسيرا ،
أنت التي يتعلق كل طرف شعرة من شعري بسدى منطقتك !
إلى متى تضلين الطريق إلى واحدنية الله ؟
إلى متى تفرضين على الآله الواحد عار التثليث ؟
كيف يتأتى أن تدعى الإله الحق الواحد أبا وإبنا وروح القدس ؟
فافتري ثغرها الجميل وقالت لي والضحك الخلو يتدفق منها :
إن كنت تعرف سر الآله الواحد فلا ترمني بسبة الكفرة !
في ثلاث مرايا يشرق الجمال الأبدى بشعاع من وجهه الساطع .
وبينما نحن في حديثنا هذا أنبعثت هذه الأنشودة بجوارنا من جرس
الكنيسة :

« إنه إله واحد ولا إله سواه ؟
لا إله إلا الله وحده
في قلب كل ذرة تشقيها ترين شمسا في الوسط .
أن أنت بذلت لله كل ما تملكين ، فلا حسب كافرا
أن أصابك مثقال ذرة من الحسران . . .
سوف تعبرين الصراط الضيق وتبصرين الملكوت الرحب ،
ملكوت الإله الذي لا يحده مكان
وسوف تسمعين ما لم تسمعه أذن ، وترين ما لم تره عين ،
حتى يأتوا بك إلى مكان لا تبصرين فيه من الدنيا وأهلها غير واحد أحد
إلى هذا الواحد ستبدلين الحب من قلبك وروحك ،
حتى ترى بعين اليقين في جلاء لا خفاء فيه .
أنه إله واحد ولا إله سواه ،
لا إله إلا الله وحده » (٢٩)